

التطور السياسي للمرينيين

امتد عمر الدولة المرينية ما بين القرنين 7هـ/13م و9هـ/15م وغطت في بعض الأوقات كل شمال إفريقيا وجزء من الأندلس. وبالرغم من نقط التشابه التي تجمعها بالدول المغربية السابقة من ناحية الأساس البشري والجغرافي، فإنها انفردت ببعض العناصر التي ميزتها عنها خاصة فيما يتعلق بالأساس الإيديولوجي والمذهبي الذي قامت عليه والذي سيؤثر سلباً على مستقبلها. وقد مرت بعدة أطوار ومراحل تناوبت فيها مظاهر القوة والضعف، وتدخلت عناصر غريبة للتأثير في مسارها.

1- أصل المرينيين ونمط عيشهم

المرينيون فرع من زناتة من الجيل الثاني حسب التقسيم الخلدوني. وتختلف المصادر حول تحديد مواطنهم بحيث نجد اقتراحات وآراء مختلفة نجلها فيما يلي:

- تمتد بلاد بني مرين من جنوب القيروان حتى صحراء بلاد السودان (بلاد الجريد - بلاد الزاب - إفريقية)
- مواطنهم ما بين سجلماسة وفكيك في الجنوب وملوية في الشمال مع توغل حتى بلاد الزاب (ابن خلدون)
- من بلاد الجريد حتى المغرب مرورا ببلاد الزاب وتاهرت وجهات تلمسان (ابن مرزوق)
- مجال بين تلمسان وتاهرت (الحلل الموشية).

يلاحظ؛ وبالرغم من الاختلاف في التفاصيل، أن كل التحديدات تجعل مجال القبيل يمتد من جنوب إفريقية ببلاد الجريد حتى ملوية بالمغرب الأقصى مرورا بالزاب ونواحي تلمسان وفكيك وسجلماسة. وهذا مجال شاسع يصعب أن يقيم فيه قبيل بشكل دائم مما يدفع إلى التفكير في كونه مجال ترحاله الموسمي بحثا عن المراعي تبعا للفصول والسنين. فنظام المعيشة والاقتصاد القائم على تربية الإبل والماشية يقتضي رحلتين في السنة. رحلة إلى الجنوب خلال فصل الشتاء وتتجه نحو واحات سجلماسة وبلاد الزاب والجريد (حسب السنين وربما يقسم القبيل إلى مجموعات تتجه كل واحدة نحو منطقة واحدة) حيث تكون الحرارة معتدلة وتنعدم الثلوج ويتوفر بعض الكلا بفضل نظام السقي وقصر الدورة النباتية للنباتات بحيث تنمو بمجرد سقوط أولى الأمطار موفرة كلاً للماشية في فصل الشتاء القاسي. ورحلة إلى الشمال خاصة إلى ملوية خلال فصل الصيف حيث تعادل الحرارة ويتوفر الماء والكلا (هذا نظام متوسطي ما تزال بعض آثاره باقية حتى اليوم).

وبناء على هذا التصور تكون المواطن التي حددت للقبيل هي مجال تحركه طيلة السنة ولا يقتضي تملكا له بل فقط مجموعة من التحالفات والاتفاقيات مع القبائل التي تنتشر به وتستغله. ويقوم نمط عيش هذه القبائل على الترحال وتربية الإبل والماشية كما يحدده هذا الكلام لابن خلدون:

"لا يعمرون إلا القفار، ولا يؤدون لسلطانهم بدرهم ولا دينار، ولا يدخلون تحت حاكم ولا سلطان، ولا يرضون بذل ولا هوان، لهم همم عالية ونفوس إلى المعالي سامية، لا يعرفون الحرث ولا التجارات، ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات، جل أموالهم الإبل والخيل، ودأبهم الحرب وخوضان الليل، وشيبتهم إكرام الضيف وضرب أعدائهم بالسيف" (ج7).

يحدد النص مكونات نمط معيشتهم في:

- الترحال
- تربية الإبل والخيل والصيد (والماشية أيضا)
- جهل بالزراعة والتجارة
- الإغارة على الجيران وقطع الطرق ونهب القوافل
- شيم: إكرام الضيف والشجاعة
- عدم الخضوع لسلطان: لا ولاء ولا جباية

مجال ونمط حياة يؤهلان صاحبهما للتعرف على أحوال المغرب والاحتكاك بكل قواه السياسية؛ وربما، فهم بعض الأمور السياسية، ويضمن له حرية التحرك والتصرف حسب الظروف. ويفتح شهيته لغزو مناطق الخصب (أزغار).

2- نشأة الدولة المرينية

تعرف المرحلة الأولى من عمر الدولة غموضا كبيرا ولا تتوفر حولها إلا معلومات نادرة جدا. ففي عهد المرابطين كان يقودهم المخضب بن عسكر، وكان يغير بهم على أراضي الدولة مما اضطرها إلى مهادنته ومصانعته بالهدايا. ولما جاء الموحدون ساندتهم في قتال زناتة الموالية للمرابطين، لكن لسبب مجهول انقلب عليهم فجأة وأغار على غنائم عبد المومن التي حصلها من تلمسان ووهران، إلا أن الموحدين هزموه وقتلوه سنة 540هـ. وبعدها انسحبت القبيلة بزعامة أبي بكر بن حمامة (ت561هـ) إلى الصحراء قبل أن يبايع خلفه وابنه محيو الموحدين ويشارك في جيوشهم. وقد كان حاضرا في معركة الأرك التي جرح فيها جروحا مات منها بالزاب. وخلفه ابنه عبد الحق وشارك في هزيمة العقاب. وبعد هذه المعركة تغيرت مشاريع المرينيين السياسية دون معرفة سبب ذلك بدقة، مما يدعو إلى وضع مجموعة من الافتراضات ومنها:

- الرغبة الدفينة عند الرحل في السيطرة على الأراضي السهلية الخصبة لذلك استقروا في الريف الجنوبي شمال تازة منذ سنة 610هـ.
 - اضطراب أحوال البلاد بفعل الجفاف الذي عرفته هذه الفترة، فوقع صراع حول المراعي مما دفعهم إلى السيطرة على هذه المناطق.
 - ضعف القبائل المغربية نتيجة الجفاف وهزيمة العقاب وكذلك عجز الموحديين عن ردع الرحل والحفاظ على النظام العرفي القائم بين الرحل والمستقرين، مما فسح المجال للرحل للسيطرة النهائية على المراعي والاستقرار بها.
 - انفلات زمام القبائل العربية ومنعها لبني مرين من التنقل نحو الزاب والجريد، مما أجبرهم على الاستقرار بالريف وملوية العليا.
 - تمرد مبكر على الموحديين وفرارهم من سيطرتهم طيلة ثلثي قرن.
- كل هذه العوائل قد تفسر كليا أو جزئيا هذا التحول.

بدأ توسعهم ببلاد الريف (610-613هـ)، وهزموا قوات المستنصر بوادي نكور، وأسروا والي فاس أبا إبراهيم بن يوسف بن عبد المومن قبل إطلاق سراحه، ثم احتلوا تازة. وفي عام 616هـ، أعلن أبو سعيد عثمان بن عبد الحق خلع طاعة الموحديين وضم تسول ومكناسة وبطوية وبطلاسة وكزناية وغيثة وبني مكود...وفي سنة 620هـ، غزا بلاد فازان، وبذلك صارت أراضيها تمتد ما بين ملوية وسلا. وفي عام 638هـ، واجه المرينيون الموحديين قرب مكناس وهزموهم تحت قيادة محمد بن عبد الحق (تولى عام 637هـ)، لكن السعيد رد عليهم وهزمهم قرب فاس عام 641 أو 642هـ وقتل زعيمهم، فانسحبوا نحو تازة وبايعوا أبا بكر بن عبد الحق.

المرحلة الثانية (مرحلة المدن) بدأت بعد الحصول على الدعم الحفصي فأخذوا مكناس عام 643هـ قبل أن يلقوها بعد سنتين ويضطروا إلى بيعة السعيد ومساندته ضد بني عبد الواد. إلا أن هزيمة السعيد ومقتله على يد يغمراسن عام 646هـ، دفعت أبا يحيى المريني إلى قطع الطريق على فلول الجيش الموحدية ونهبها قرب كرسيف وضم الأغزاز والمرتزقة المسيحيين إلى جيشه. وبعدها فتح مكناس وملوية الوسطى وفاس، ولما ثارت عليه في السنة الموالية أخضعها بقوة وعاقب الزعماء بالغرم ومصادرة الأملاك والقتل (648هـ). وفي سنة 648هـ هزم المرتضى قرب مكناس واحتل فازان وسلا والرباط في السنة الموالية مؤقتا. وفي عام 653هـ، هزم المرتضى ثانية قرب فاس وعقد معه صلحا وهدنة. وفي هذا العام أو في 655هـ ضموا درعة وسجلماسة قبل موت أبي يحيى عام 656هـ والذي أعقبته صراعات داخلية بين المرينيين.

بعد تصفية المشاكل الداخلية وانفراد يعقوب بن عبد الحق بالسلطة عام 658هـ، دخل المرينيون مرحلة السيطرة النهائية على المغرب وإسقاط الموحدين. وقد بدأوا باحتلال سلا وتامسنا وأنفا، وعقد صلح مع المرتضى يقسم المغرب بموجبه بين الطرفين يفصل بينهما نهر أم الربيع. وحاولوا دخول مراكش نهائيا وحاصروها أكثر من مرة (660 و 663هـ)، ثم استخدموا أبا دبوس المتمرد الموحدى لضرب الموحدين، وبعد صراعات وخلافات تمكن يعقوب من دخول مراكش عام 668هـ، وفي السنة الموالية ضم السوس ودرعة. وفي عام 672هـ، دخل طنجة وضم سبتة بصلح مع العزفيين وأخيرا سجلماسة عام 673هـ.

وبذلك صار المرينيون حكاما شرعيين للمغرب وبدأ عملهم في التشييد على جميع الأصعدة.

3- الدولة في طور القوة

حاول المرينيون أن يجدوا أسسا تدعم سلطتهم وتقنع الرعية بشرعية حكمهم فبحثوا عنها في:

- البحث عن أصل عربي من خلال ربط زناتة بقبس عيلان ومن ثم إيجاد قرابة مع النبي.
- الانتماء للبيت النبوي وقد جاء متأخرا في عهد أبي الحسن، لكن الأندلسي الذي حاول الدفاع عنه لم يجد تشجيعا من السلطان.
- اعتبار أنفسهم ورثة للمرابطين وتشبههم بهم في كل شيء، بل حتى تقليد الموحدين في كثير من الأمور.
- تعريب الإدارة والجيش (رياح والخلط)
- فرض اللغة العربية كلغة رسمية ووحيدة
- تطوير وتشجيع الحياة الدينية من خلال:
- * تبني المذهب المالكي وإعادة إحيائه ونشره (التعليم - بناء المدارس - تشريع مالكي موحد)
- * تنظيم ركب الحج الرسمي
- * الاحتفال بالمولد النبوي
- * احتضان التصوف ببناء زوايا موالية للدولة في عهد يعقوب المنصور وأبي عنان.
- * بيعة الحفصيين ورثة الخلافة الموحدية والتوسع تحت لوائهم منذ أربعينيات القرن السابع الهجري
- * الاهتمام بالشرفاء وتوقيرهم وتخصيص العطاء لهم وتقديمهم في المجالس.

وقد انطلق هذا العهد بدخول يعقوب المريني مراكش وإسقاط الموحدين وعمل منذ البداية على توطيد أسس دولته وإعطائها الرموز الضرورية من خلال مجموعة من الإجراءات منها:

- تلقب بلقب أمير المسلمين بدل أمير المؤمنين تشبها بالمرابطين في إطار تبعية رمزية للحفصيين.
- تعيين ولي عهد سنة 669هـ (أبو مالك) أولا ولما مات عين يوسف بعد سنتين مكانه.
- بناء عاصمة جديدة للدولة وهي المدينة البيضاء أو فاس الجديد عام 674هـ غرب مدينة فاس الإدريسية، وأقام بها دواوينه وقصوره ومساجن رجال دولته بعيدا عن فاس القديمة.

وفي عهده بدأت معالم سياسة المرينيين تتضح، بحيث ظلت لصيقة بالهموم التي حددها يوسف بن تاشفين وسار عليها الموحدون بعد ذلك: إنها مشكل توحيد المنطقة (الأندلس والمغربين الأوسط والأدنى) والمشاكل الداخلية (ثورات وتمردات القبائل). وستستمر على طول عمر الدولة وستساهم في استنزافها وتدميرها.

على الجبهة الأندلسية لم يكد يعقوب يسيطر على مراكش حتى تقاطرت عليه وفود الأندلس للاستجد والتذكير بواجب الجهاد في الأندلس، فاستجاب بسرعة بحثا عن الشرعية الجهادية وإقناع الرأي العام بقوته وقدرته على تحقيق إنجازات الموحدين قبله. وقاد أربع حملات (674 و 676 و 681 و 684هـ) وحملة بحرية بقيادة ولي العهد عام 678هـ، وبالرغم من الانتصارات التي حققها ونجاحه في الحصول على جزء من الأراضي في الجزيرة الخضراء وطريفة ورندة وجبل طارق، فإن تقلب بني الأحمر وعدم التزام قشتالة بالصلح المعقود معها مرارا وتكرارا والتكاليف الباهظة للحملات قد حد من أهميتها ولم يحقق شيئا أكثر من إعادة إبراز دور المغرب المهم في غرب البحر الأبيض المتوسط.

ولم يواصل خليفته نفس السياسة بحيث اكتفى بحملة وحيدة عام 691هـ ثم تنازل عن الممتلكات المرينية لبني الأحمر وحاول التحالف مع قشتالة ضد تلمسان. واستغلت غرناطة والإسبان الوضع واحتلت طريفة وسبتة ودعمت ثوارا مطالبين بالعرش ضد المرينيين. واستمر التراجع المريني في الأندلس حتى 729هـ عندما قام أبو سعيد باسترجاع سبتة وإخضاع بني العزفي وبسط سيطرته على الجزيرة الخضراء وجبل طارق (733هـ) في أفق إعادة الوهج للجهاد في الأندلس. وفي عهد أبي الحسن نشط الجهاد وحقق بعض الانتصارات، لكن هزيمة طريفة عام 741هـ وضعت حدا للوجود المغربي الرسمي في الأندلس وأصبح المرينيون يقدمون فقط بعض الغزاة يقودهم شيخ الغزاة هناك ويخضعون للدولة النصرانية.

على الجبهة المغربية، بايع المرينيون الحفصيين وبالرغم من تحالفهم معهم ضد بني عبد الواد، فقد ظل دورهم تحكيميا بين الطرفين. وكان الصراع مع بني عبد الواد عائليا وحدوديا وسياسيا وبدأ منذ حربهما مع الموحدين. وبعد دخول مراكش حاصر يعقوب المنصور تلمسان،

لكنه اضطر إلى فك حصاره بعد تحالفها مع تونس ولجوء الطرفين إلى إيواء الثوار ضد المرينيين. وقد تكرر الحصار ودام مرة ثمانية سنوات (698-706هـ) وانتهى باغتيال أبي يعقوب بمدينة المنصورة التي أقامها على أبواب تلمسان وفك أبو ثابت الحصار بعد ذلك. وفي عهد أبي سعيد عقد الصلح مع تلمسان وحصل تحالف ومصاهرة مع تونس. ولما تولى أبو الحسن نشط مغاربيا وضم تلمسان عام 747هـ وتونس عام 748هـ، لكنه سرعان ما فقدهما مع عرشه، وعاد أبو عنان وضم العاصمتين لوقت قصير.

على الجبهة الداخلية، عانى بنو مرين من اضطرابات داخلية دائمة. ففي الجنوب كان لسكساوة وحلفائها من المصامدة وقبائل المعقل نشاط مستمر تطلب حركات متكررة للسلاطين. وكان الأمراء المرينيون مصدر قلق حيث حصلوا على المدن والأقاليم على شكل إقطاعات وتصرفوا فيها بحرية وأياد مطلقة. وكان الريف ملجأ للثوار لقربه من غرناطة وقشتالة وأراغون التي تقدم الدعم لكل ثائر. وثار بعض الأبناء على آبائهم كما فعل أبو على مع أبيه أبي سعيد عثمان في سجلماسة وتوات بدعم أراغوني (المرتزقة في فاس) ونفس الشيء قام به أبو عنان ضد أبيه أبي الحسن عام 748هـ. وكانت هذه المشاكل تكبل أيدي السلطين وتؤثر على سياساتهم.

4- تدهور وضعف المرينيين

بعد وفاة أبي عنان أو اغتياله تدهورت الأوضاع بسرعة كبيرة في المغرب، واتخذت الأزمة مظاهر عديدة أهمها:

- هيمنة الوزراء على الحكم: تولية وعزل السلطين باستمرار، فقد حكم بعد أبي عنان سبعة عشر سلطانا اغتيل منهم سبعة وعزل خمسة. وكان أولهم السعيد (1358-1374م) الذي أغرق في صهريج.
- فرض غرناطة وصايتها على الدولة وتدخلها في شؤونها خاصة في عهد محمد الخامس (1374-1393م)، وقد أخذ جبل طارق ووضع حامية له في سبتة، كما فرض توجيهاته على الوزراء الذين نفذوها ودعم الثوار متظاهرا بلعب دور الحكم.
- تدخل إيبيري في البلاد: في 1399م دخل هنري الثالث الإسباني تطوان ونهبها وباع سكانها في سوق النحاسين بمبرر طرد القراصنة. واحتل البرتغال سبتة عام 1415م وفشلت جهود أبي سعيد الثالث (1398-1420م) في استعادتها بعد أن تكبد هزيمتين آخرهما عام 1419م.

- انقسام البلاد إلى عدة مناطق مستقلة في الريف وسوس وتافالانت، وزاد استقلال القبائل ونفوذها (تافالانت ودرعة والأطلس الكبير)، كما ظهرت أسر حاكمة مستقلة في الجنوب (هنتاتة في مراكش)
- ثورة فاس عام 1420م التي قضت على أبي سعيد الثالث وكل أسرته عدا طفل صغير هو عبد الحق (1420-1465م) الذي صار آخر الحكام المرينيين تحت وصاية أبي زكرياء يحي الوطاسي وأثنان من أفراد أسرته.
- ثورة شعبية في فاس ضد إصلاحات عبد الحق المالية وإشراكه اليهود في إدارته سنة 1465م، وقد تسببت في قتل عبد الحق وتعيين الجوطي الإدريسي خليفة، لكنه كان ضعيفا واقتصر نفوذه على فاس مما سهل القضاء عليه من قبل محمد الشيخ الوطاسي عام 1472م ليؤسس الأسرة الوطاسية خليفة المرينيين.

وتعود أسباب ضعف المرينيين إلى:

- ضعف القاعدة الإثنية (قبيل بني مرين)
- انعدام مذهب ديني على غرار ما هو معروف عند المرابطين والموحدين
- الاضطرابات التي خلقها بدو العرب مما اضطر الدولة إلى ترضيتهم (المصاهرة – الاقطاعات – التحالفات السياسية)
- جيش ضعيف وقليل الولاء.

خاتمة

تولى المرينيون السلطة في ظروف مضطربة ودون استعداد خاصة على الصعيد الفكري، وقد ظل هذا النقص ملازما لهم طيلة عمر دولتهم وشكل عقدة لهم حاولوا حلها بعدة وسائل دون النجاح في ذلك. وقد كان هذا الغياب للبعد الإيديولوجي أحد أسباب ضعف الدولة وقلة ولاء الرعية مما يمكن أن يفسر كثرة الثورات والاضطرابات.



الحفصيون، الزيانيون والمرينيون

الأندلس وشمال إفريقية بعد سقوط الموحيدين في مطلع القرن الرابع عشر للميلاد

الدولة المرينية	خطوط تقدم المرينيين	حدود الدولة الزيانية الأولى	حدود الدولة الحفصية الأولى
بنو سليمان حتى 1300 م	بنو نصر	الدولة الزيانية	فرع الحفصيين في تونس
لمارة الزاب بعد 1300 م	مناطق نزاع	مناطق نفوذ الزيانيين	فرع الحفصيين في بجاية

ملحق: الحكام المرينيون

ملحق رقم (٧)

جداول بأسماء الخلفاء والسلاطين والحكام الذين عاصروا الدولة المرينية

أ - بنو مرين

- ١ - أبو محمد عبدالحق بن أبي خالد محبو بن أبي بكر
ابن حمامة المريني .
- ٢ - أبو سعيد عثمان بن عبدالحق (أدرغال)
- ٣ - محمد (الأول) بن عبدالحق
- ٤ - أبو يحيى أبو بكر بن عبدالحق
- ٥ - أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق
- ٦ - أبو يعقوب يوسف بن يعقوب ، الناصر لدين الله
- ٧ - أبو ثابت عامر بن أبي عامر
- ٨ - أبو الربيع سليمان بن أبي عامر
- ٩ - أبو سعيد عثمان (الثاني) بن يعقوب
- ١٠ - أبو الحسن علي بن عثمان
- ١١ - أبو عنان فارس المتوكل بن علي
أبو زيان محمد بن فارس أبي عنان
(ولي ثم عزل في الحال)
- ١٢ - محمد السعيد بن أبي عنان (وعمره خمس سنوات)
- ١٣ - أبو سالم إبراهيم بن علي
- ١٤ - أبو عامر تاشفين بن علي
- ١٥ - عبدالحليم بن أبي علي عمر (انفرد بسجل مائة منذ
ربيع الأول سنة ٧٦٣)
- ١٦ - أبو زيان محمد (الثاني) المنتصر ابن أبي عبد الرحمن
- ١٧ - أبو فارس عبدالمعز المنتصر بن علي
- ١٨ - أبو زيان محمد (الثالث) السعيد بن عبدالمعز

- ١٩ - (أ) أبو العباس أحمد المنتصر بن إبراهيم ومعه
 (ب) عبدالرحمن أبو يفلوسن (بمراكش)
 ٢٠ - موسى بن أبي عنان ، المتوكل على الله أبو فارس .
 ٢١ - أبو زيان محمد المنتصر بالله بن أحمد
 ٢٢ - أبو زيان محمد (الرابع) الواصل بالله
 ابن أبي الفضل المنتصر ، (للمرة الثانية)
 ٢٣ - أبو فارس بن أحمد
 ٢٤ - عبدالعزیز بن أحمد
 ٢٥ - عبدالله بن أحمد
 ٢٦ - أبو سعيد عثمان (الثاني) بن أحمد
 ٢٧ - أبو محمد عبدالحق بن أبي سعيد
 (الثاني)
- (م ١٣٧٤ / هـ ٧٧٦)
 (م ١٣٧٤ / هـ ٧٧٦)
 (م ١٣٨٤ / هـ ٧٨٦)
 (م ١٣٨٦ / هـ ٧٨٨)
 (م ١٣٨٦ / هـ ٧٨٨)
 (م ١٣٩٣ / هـ ٧٩٦)
 (م ١٣٩٦ / هـ ٧٩٩)
 (م ١٣٩٧ / هـ ٨٠٠)
 (م ١٣٩٨ / هـ ٨٠١)
 (م ١٤٢٧ / هـ ٨٣١)

خاتمة عامة

عرفت الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريين تعاقب ثلاث دول على حكم المغرب. وتميزت بطبيعتها المحلية إذ أسست على يد بربر/ أمازيغ من الكنفدراليات البربرية الثلاث صنهاجة ومصمودة وزناتة التي تكون سكان المغرب. وجمعت هذه الدول نقط تشابه كثيرة خاصة ما يتعلق بالأسس التي قامت عليها وهي الأساس القبلي العرقي والأساس الديني بالخصوص. وامتاز مشروعها الحضاري بالتكامل والاستمرارية حتى إننا نستطيع أن نقول إننا أمام دولة واحدة. وتشابهت هموم هذه الدول أيضا حيث ارتبطت بالدفاع عن الأندلس وتوحيد الشمال الإفريقي وإخماد الثورات الداخلية من الأبناء والأغراب على حد سواء. وقد كانت هذه الهموم العوامل الرئيسية التي حطمتها وأنهت تجربتها في آخر المطاف.

./.